خطاب المسئولية فى الثقافة العربية الإسلامية

طارق النعمان

مدخل:

يبدو خطاب المسئولية خطابًا ملتبسًا وإشكاليًا إلى حد غير قليل، سواء على مستوى مكوناته وتقاطعاته أو اشتباكاته وتداخلاته مع مجالات وخطابات أخرى، أو على مستوى تنوع ممارساته؛ ومن ثم على مستوى تحليله أيضًا. ولعل ذلك يعود لجملة من العوامل المتداخلة والمتشابكة، هى الأخرى، فيما بينها. وذلك ما سوف يحاول هذا المدخل الموجز استكشافه كتوطئة لمقاربة خطابات المسئولية فى الثقافة العربية عامة، وفى الثقافة العربية الإسلامية على وجه الخصوص.

ولعل أول عوامل هذا الالتباس هو ما يوهم به دال "المسئولية" ذاته من أنه دال "شفاف" وواضح بذاته؛ بحكم كثرة شيوعه وتداوله، هذا فى حين أنه ما أن يبدأ الباحث بمقاربة هذا الدال حتى يأخذ هذا الوهم، وهم الوضوح، فى التبدد والتلاشي. ذلك أنه ما من حدود واضحة تقول لنا: أين تبدأ المسئولية وأين تنتهي؟ كما أنه لا يوجد كتاب جامع، أو مرشد تفصيلي يحدِّد بجلاء ووضوح طبيعة وأنواع المسئوليات، بما فى ذلك الشرائع والكتب السماوية أو المجلدات القانونية. وهو ما يعني أنه يوجد دومًا بعد اجتهادي وتقديري وتأويلي فى تحديد وممارسات المسئولية. بعبارة أخرى، إن المسئولية مفهوم غير منجز وغير مكتمل، مفهوم متحول ومتغير من لحظة إلى أخرى، ومن سياق إلى آخر، ومن تأويل إلى سواه ... إلخ وفق تفاوت اللحظات والسياقات والأعراف والأديان والقوانين والمؤوّلين، ناهينا عن تعدد المنظورات وتعارض المصالح والغايات، ومواقع القوى التى يمكن أن تُعاين منها المسئولية. ولا شكّ أن كل هذه الأبعاد المختلفة والمتباينة تجعل المفهوم نسبيًا إلى حد مزعج، ولعل هذه النسبية ذاتها هى سر ومفتاح هذا الالتباس.

ثانيًا، على الرغم من ذلك قد يرى البعض أن ثمة تحديدًا لمفهوم "المسئولية" فى أغلب الثقافات واللغات، بما فى ذلك العربية ذاتها، يتمثل فى اقتران مفهوم "المسئولية" بمفهوم "المحاسبة" وهذا صحيح؛ ومن ثم فإن الزعم بأن المسئولية مفهوم ملتبس ورجراج ليس إلا من قبيل الفذلكة النظرية. إلا أن الرد على احتجاج كهذا ليس بالأمر الصعب، إذ يكفي هنا أن تُطرح بعض الأسئلة البسيطة والإنسانية:

1) هل تمارس، أو مورست عبر كل المجتمعات والثقافات، المحاسبة، دومًا، بمسئولية؟

2) هل المحاسبة أصلاً مادية أو مرادفة للمسئولية؟

3) ما هي معايير المحاسبة التى تفي بالمسئولية؟

4) هل من المسئولية دومًا أن تكون هناك محاسبة، وإذا كان فأين يمكن أن توضع مفاهيم وممارسات مثل التسامح، أو العفو، أو الصفح، ثم ألا يمكن أن تكون مفاهيم وممارسات من هذا النوع أنجز كثيرًا، في سياقات معينة، من المحاسبة بصورها الاعتيادية، أو أن تصبح حتى دافعًا لصور من المحاسبة الذاتية وسلسلة من ردود الفعل التكفيرية التي لا يمكن للمحاسبة بصورها التقليدية أن تنجزها؟

5) ألا تفضي المساواة بين المسئولية والمحاسبة إلى مفهوم آخر، وهو مفهوم العدالة، وهنا يطرح السؤال نفسه: هل يمكن لمفهوم العدالة أن يفي بمفهوم المسئولية، وإذا كان الجواب هو النفي، فما هى الحدود والفروق بين المسئولية والعدالة؟

6) ألا تعني المساواة بين المسئولية والمحاسبة الخلط بين فعالية ما وإحدى ضوابط أو ضمانات ممارستها؟

إن كل هذه أسئلة، وهناك أسئلة أخرى عديدة سواها، يمكن الرد بها على احتجاج من قبيل الاحتجاج الافتراضي الذى أشرنا إليه.

ثالثًا، إن مفهوم المسئولية ليس مفهومًا أحادى البعد، وإنما هو متورط مع مفهوم "الآخر" بامتياز؛ وذلك لأن هناك دومًا "المسئول" و"المسئول عنه"، ولكل منهما وجهة نظره الخاصة حول كيفية ممارسة المسئولية؛ ومن ثم يستطيع أن يحاكم بها الطرف الآخر، فضلاً عن وجهة نظر طرف ثالث قد تحاسب، أو قد يكون من حقها أن تحاسب وتحاكم كلا الطرفين، سواء كانت هذه الجهة قضائية أو عرفية أو دينية أو حتى تاريخية – مستقبلية.

رابعًا، إن تجاور وتعدد التجارب والقيم الإنسانية والثقافية والتاريخية فى الوعي الإنساني الذي يجمع، فى الكثير من الحالات، بين ما هو أسطوري وعرفي وديني وما هو فلسفي وعلمي وقانوني ...إلخ يلعب دورًا كبيرًا هو الآخر فى التباس مفاهيم وخطاب المسئولية. وذلك أن الأفراد والجماعات والأمم يستقون من كل هذه المصادر وينوعون فى الاختيار من بينها فى الكثير من الحالات، ولعل حالة السيد جورج بوش الابن "صاحب المهام السماوية" دليل كاشف على تجاورات الوعي تلك فيما يتعلق بممارسة المسئولية. ولعل هذا العامل أيضًا هو المسئول عما يبدو من تداخل أو تقاطع أو تضارب أو حتى خلط بين "المسئولية" أو

لنقل مفهوم/ أو مفاهيم المسئولية، ومفاهيم أخرى مثل التكليف، والواجب، والفرض، والحق، والعدالة، والمندوب، أو المستحسن، والجميل والمعروف، وسواها من مفاهيم أخرى مرتبطة بها بشكل أو بآخر، خصوصًا داخل الثقافة العربية ـ الإسلامية.

خامسًا، إن المسئولية، عبر كل هذا وعبر كل تاريخها، متورطة على مستوى الزمن، أى أن لها انخراطاتها الزمنية على مستوى الحاضر بقدر ما هى متورطة أيضًا على مستوى الماضى والمستقبل. بعبارة أخرى، كيف يمكن للإنسان، سواء كان فردًا أو جماعة أو أمة، أن يكون وفيًا لكل هذه الأزمنة وأن يكون مسئولاً عنها، مع كل ما يمكن أن يكون بينها من تناقضات. ولعل خطاب السيد جورج بوش الابن هنا يمثِّل أيضًا نموذجًا مثاليًا، بقدر ما يمكن أن يكون أيضًا خطاب السيد بن لادن.

سادسًا، إن المسئولية غالبًا ما تكون مكيّفة مكانيًا ومحكومة بأماكن ومواقع ممارستها، ويعد خطاب السيد جورج بوش الابن هنا أيضًا حالة مثالية في هذا الصدد. ولا شك أن معظمنا يعرف الاختلاف الذى يضفيه المكان، بما هو مكانة، على مفهوم أو إدراك الكثيرين للمسئولية. بعبارة أخرى، إن مفهوم المسئولية لدى الفرد الواحد يعاد تكييفه وفقًا للمكان والموقع الذى يُمارِس من خلاله المسئولية، وهو ما يعني أن المسئولية مكانية بقدر ما هى زمانية.

سابعًا، إن اختلاف النوع ظل، وما زال، يلعب أدوارًا خطيرة فى ترسيم حدود المسئولية. ولعل هذا الترسيم النوعي للمسئولية هو أبرز وأوضح ما تحفظه لنا ذاكرة المسئولية عبر أدبيات مختلفة عديدة حتى يومنا هذا، وهو ما جعل خطاب المسئولية ذكوريًا بامتياز.

ثامنًا، إن اختلاف وتعدد وتزامن الأدوار الاجتماعية يزيد هو الآخر من إشكال والتباس مفاهيم وخطابات المسئولية، لأنه يطرح مشكل إمكانية التوفيق أو عدم التوفيق بين تعدد المواقع والوظائف الإنسانية والاجتماعية بالنسبة للأفراد أو حتى بالنسبة للجماعات والمؤسسات.

تاسعًا، إن مفاهيم المسئولية، الملتبسة أصلاً زمنيًا ومكانيًا وفرديًا وجماعيًا وثقافيًا ونوعيًا ومصلحيًا وتصوريًا، أصبحت أكثر التباسًا وتعقيدًا فى ظل خطاب العولمة، أو بالأحرى فى ظل خطاب الأمركة المهيمن على الصعيد الدولي.

وفى حقيقة الأمر ، فإننا إذا ما نظرنا إلى هذه العوامل فى ظل علاقتها بمفاهيم وخطابات المسئولية لوجدنا أن الفصل بينها ليس إلا فصلاً تعسفيًا، لأنها جميعًا فيما عدا هذا العامل الأخير – الأمركة/ العولمة – كانت دومًا متداخلة ومتشابكة فى إشكال مفاهيم وخطابات المسئولية. ومع ذلك يظل لهذا

العامل الأخير دوره الأكثر إشكالاً اليوم فى مقاربة المسئولية، سواء على المستوى النظري أو على مستوى الممارسة، خصوصًا أن مفاهيم المسئولية المتنوعة والمتعددة وفق تنوع وتعدد الثقافات الإنسانية أصبح يُراد لها اليوم أن تختزل فى مفهوم واحد هو مفهوم الإرادة الأمريكية المسئولة دون سواها عن هذا الكون، وعن المستقبل بألف ولام التعريف.

إن الهدف من كلّ هذا التمهيد السابق هو الكشف عن أمرين أساسيين، وهما:

أولاً، أن الانطلاق من المقترح الأوَّلى لهذا المشروع، والمتمثل فى تبني منهجية "الحقل الدلالي" لمقاربة "المسئولية" لا يمكنه أن يفي بأيِّ حال من الأحوال بكل هذه الالتباسات والوجوه المتعددة التى يشتبك معها دال "المسئولية".

ثانيًا، إن المساحة المتاحة لهذه الورقة، وكذلك بالنسبة لبقية الأوراق الأخرى، ستفرض، بالضرورة، على أيِّ مقاربة، أيًا كانت، أن تكون انتقائية إلى حد غير قليل، فيما يتعلق بالأمثلة والشواهد التي يتم الاستشهاد بها لتمثيل مفاهيم المسئولية، وهذا فى حد ذاته يطرح، منذ اللحظة الأولى، على الباحث سؤال "مسئوليته هو أو هي" عن تمثيل المسئولية فى ثقافته أو لغته(ها) فى بحث هو ذاته حول المسئولية، ناهينا عن علاقة ثقافته بثقافات أخرى.

لهذا، فقد ارتأينا أن الحل المعقول، وإن لم يكن بالضرورة الأمثل، لمثل هذا المأزق هو أن ننطلق من تتبع ثوابت خطاب المسئولية على اختلاف المواقع والنصوص والخطابات التى يُمارس منها هذا الخطاب. وذلك من خلال رصد استعارات وتمثيلات المسئولية كما تتجلى فى الثقافة العربية عبر نصوص وخطابات متعددة ومتنوعة على مستوى المجالات التي تنتمي إليها. وذلك أن استمرار هذه التمثيلات، أو تحولها إن كان هناك من تحول، عبر لغة يكاد تاريخها يقارب ألفيتين، وعبر ثقافة شهدت تحولات عديدة، ومع ذلك مازالت فيها ثوابت أزمنتها الأولى، هو معيار يمكن أن يرتكن إليه الباحث فى ظل تنوع وتعدد أقنعة المسئولية، أو لنقل فى ظل تنوع وتعدد المجالات والخطابات والأزمنة والثقافات التى تقطنها المسئولية.

ومع ذلك، فإننا نود أن نشير إلى أمرين: الأول هو أننا لن نوفي، فى ظل الحيز المتاح، كل الاستعارات الممثَّلة من خلالها المسئولية حقها من الاستشهاد والتحليل، وإن كُنَّا سننص على بعض ما رصدناه، حتى الآن، من استعارات وتمثيلات للمسئولية فى اللغة العربية.[1]

[1] يجدر التنويه أن هذا البحث كان محكومًا بالحيز المتاح له وفق معايير النشر الأجنبي، وهو ما دفع إلى تقليص حيز الاستشهادات.

الثاني هو أننا لن نلتزم التاريخية بمعناها الدقيق فى تتتبعنا للاستعارات المشغِّلة والمحرِّكة لخطاب المسئولية، وذلك أنه من الصعوبة بمكان فى ظل لغة لا تملك معجمًا واحدًا تاريخيًا حتى الآن أن يتم الوفاء بمطلب من هذا النوع بالنسبة لباحث فرد؛ إلا أن هذا لن يعني على الإطلاق غياب البعد التاريخي، بمعناه العام، بقدر ما يعني أننا سنستجيب بدرجة أكبر لتواتر وتكرار الاستعارات عبر النصوص وعبر الخطابات بغض النظر عن تسلسلها التاريخي. ذلك أن هذه التواترات والتكرارات هي الأكثر قدرة على كشف الآليات والكيفيات التي يشتغل بها دال "المسئولية" فى العديد من المجالات والخطابات والنصوص، ومن ثم فإن حركتنا ستكون حركة شبه مَكُّوكية، ما دام الهدف هو الكشف عن خطاب المسئولية الساري حتى اليوم فى الثقافة العربية، وخصوصًا أن هذا الخطاب مازال يحكم ممارسات المسئولية على اختلافها. بعبارة أخرى، إن المسئولية تبدو وكأنها واحدة من الحكايات الكبرى master narrative التى تحكم الوعي الإنساني منذ بداية تشكيله للحكايات وحتى يومنا هذا، ولا شك أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، تتبع حكاية بهذا الطول، ومع ذلك فإننا نريد أن نمسك ببعض ملامحها داخل ثقافة كالثقافة العربية – الإسلامية. وفى ظل هذا، ربما كان من حق القارئ علينا أن يعرف أن الثقافة العربية قد ارتبطت باليهودية والمسيحية، وبالطبع بالوثنية، قبل أن تتحول إلى الإسلام. ومن ثم فإن عبارة "الثقافة العربية – الإسلامية" لا تعني، بحالٍ من الأحوال، أنها قد انقطعت انقطاعًا تامًا عن اليهودية أو المسيحية، أو حتى الوثنية، على مستوى القيم، وحتى يومنا هذا.

ويظل هناك مشكل أخير نريد أن نشير إليه فى هذا المدخل، وهو عبارة "الثقافة العربية الإسلامية" بألف ولام التعريف، وذلك أنه ما من ثقافة عربية إسلامية واحدة، إذ هناك ثقافات، داخل ما يدعى بالثقافة العربية الإسلامية. ومع ذلك فإننا لا نستخدم هذه العبارة عن جهل أو عدم وعي بهذا التنوع أو بهذه التعددية. إلا أن هذا التنوع لم يغير كثيرًا، حتى الآن، فيما يتعلق بالثوابت التى يمارس من خلالها خطاب المسئولية حضوره، ولا فى الاستعارات المهيمنة على هذا الخطاب.

*****

جذر المسئولية:

من أين نبدأ حكاية المسئولية، هل من الجذر اللغوى أم من الجذر الثقافى؟

لا شك أن أى جذر لغوي لا ينفصل، بحال من الأحوال، عن الثقافة التى صاغته أو بالأحرى جذَّرته فيها، إلا أنه لا شك أيضًا أن اللغة ظلت تلعب دومًا دور الراوي الذي يحكي حكاية الثقافة، لأنها سواء عبر نصوصها المكتوبة أو المحفوظة ذاكرة للثقافة التى تمثلها. ولذا، فإننا سنبدأ برصد بدايات ظهور دال "المسئولية" بصيغته تلك التي تترجم بها كلمة responsibility فى العربية، أى أننا سنبدأ من الدال اللغوي ومن بدايات ظهوره قبل أن نقارب المفهوم. وبهذا الصدد، فإنه يمكن القول: إنه من شبه المؤكد لنا أن دال "المسئولية" بصيغته تلك لم يتواجد فى العربية إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وغالبًا عبر مخاض المثاقفة التحديثية مع الغرب والتي كان محمد على باشا قد أرسى أسسها فى بدايات القرن. وقد اقترنت هذه المثاقفة التحديثية فى مصر بمحاولة نقل بعض البنى الهيكلية للدولة بمعناها شبه الغربي إلى مصر، بما فى ذلك من وزارات ومؤسسات سياسية وتعليمية وقوانين ولوائح ودساتير ... إلخ. وقد لعبت الترجمة بالطبع دورًا أساسيًا فى هذه المثاقفة.

وإذا كنا لا نستطيع القطع بالتاريخ الدقيق لظهور دال المسئولية فى ظل غياب أرشيف عصري يمكن الارتكان إليه، فإن ما قمنا به من بحث ومسح للعديد من النصوص، بالطبع فى حدود طاقة باحث فرد، يجعلنا مطمئنين، إلى حد غير قليل، إلى صحة تقديرنا حول بدايات ظهور دال المسئولية. إذ ترد بعض الاقتباسات المنقولة عن جريدة **الوطن** المصرية فى أحد أعدادها الذى يعود تقريبًا إلى النصف الثانى من شهر يونيه 1879.[2] وهو نص يعلق على الدستور الذى كان قد تم التصديق عليه بتاريخ 15 يونيه 1879 من قبل الخديوي إسماعيل، وفى هذا النص يعلق المحرر على الدستور بأنه تقرر فيه "مبدأ الحصانة البرلمانية، ومبدأ عدم تنفيذ القوانين واللوائح قبل التصديق عليها من النواب ومبدأ **مسئولية** الوزراء الكاملة أمام المجلس."[3] ثم يبدأ مصطلح المسئولية فى التواتر، إذ نجده بعد ذلك فى "لائحة مجلس شورى النواب الصادرة سنة 1882، حيث تنص المادة (21) من اللائحة على أن "النظار [أى الوزراء] **متكافلون فى المسئولية** أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويترتب عليه إخلال بالقوانين واللوائح المرعية الإجراء"، كما نجد المادة التالية لها مباشرة تنص على أن "كل من النظار

[2] مجلة القاهرة فبراير، مارس القاهرة مصر 1997.

[3]) مجدي المتولي: ''التشريعات المصرية، الجزء الأول: دساتير مصر''، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 2002.

مسئول على الوجه المذكور بالبند السابق عن إجراءاته المتعلقة بوظيفته" ويتكرر ورود دال المسئولية ثانية فى كل من المادتين (41) و(47) من نفس اللائحة.

ولاشك بالطبع أن مفهوم "المسئولية" هنا له بعد قانوني سياسي إلزامي، وأنه يقترن بمفهومي المحاسبة والمراقبة المرتبطين بالنظام النيابي والديموقراطي عمومًا. كما نجد دال "المسئولية" يأخذ فى التداول فى كتابات المصلحين والمنورين السياسيين لهذه الحقبة؛ إذ نجد، على سبيل المثال، الكواكبي، وهو أحد المصلحين السوريين يلح فى مقالاته التي نشرت بعد ذلك فى كتابه **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد** على مفهوم المسئولية بما هي مشاركة ومراقبة ومحاسبة. وهو يرى فى هذا أن "**الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط فى المسئولية،** فيكون المنفذِّون مسئولين لدى المشرِّعين، وهؤلاء مسئولين لدى الأمة، تلك الأمة التي تعرف أنها صاحبة الشأن كله وتعرف أن تراقب وأن تتقاضى الحساب."[4] ويظل الكواكبي يلح على العلاقة الطردية بين تفشي الاستبداد وغياب مفهوم المسئولية بما هي مشاركة ومراقبة ومحاسبة على امتداد هذه المقالات التى أصبحت بعد ذلك كتابًا. ولعله يمكن القول: إنه منذ ذلك الحين دخل دال "المسئولية" فى المعجم السياسي للثقافة العربية؛ ومن ثم فى الفضاء الاجتماعي العربي، وإن كان بدرجات متفاوتة.

ولكن هل يعني هذا أن الثقافة العربية والثقافة العربية الإسلامية كانت قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحيى بلا مفهوم أو مفاهيم ما للمسئولية؛ وهل هناك من ثقافة ما أو أمة ما أو حتى جماعة ما يمكنها أن تتشكل أصلاً كثقافة أو كأمة أو كجماعة، ناهينا عن أن تحي وتستمر دون مفهوم ما أو مفاهيم ما للمسئولية؟

لعل السؤال الثاني يحمل جوابًا ضمنيًا عن السؤال الأول، ومن ثم فلا داعي لأى حجاج، وإنما يكفي فقط أن نبدأ فى التعرف على استعارات المسئولية فى العربية.

المسئولية والاستعارة الجذر:

لعل أول استعارة ضمنية يمكن أن نشتقها من الجذر اللغوى للمسئولية، فى العربية، هى استعارة "المسئولية امتحان". وهنا تبدو هذه الاستعارة وكأنها استعارة انعكاسية a reflective metaphor أو لنقل استعارة ممتدة an extended metaphor على مستوى علاقتها بالجذر اللغوى المشتق منه دال

[4]) عبد الرحمن الكواكبي، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، ص 14، ط 1، منشورات الجمل، بغداد، 2006. ملحوظة: ولد الكواكبى عام 1854 ومات مسمومًا عام 1902. وبالطبع فإن حديثه عن الاستبداد وعن المسئولية هو سر قتله.

"المسئولية". ذلك أن دال "المسئولية" فى العربية هو "مصدر صناعي" مشتق من اسم المفعول "مسئول" المشتق، بدوره، من الفعل "سأل" الذى تتعدد وتتنوع دلالاته ما بين الطلب والاحتياج بالمعنى المادي[5] إلى الاستفهام والاستعلام حول أمر مجهول – أو حتى معلوم، وهذا يكون بالطبع بهدف السخرية أو الاصطياد والإحراج – وصولاً إلى المساءلة بما هى استجواب وتحقيق.[6] وفى ضوء هذا يمكن القول إن "المسئولية" هى عبارة عن وضعية يكون فيها على الطرف "المسئول،" سواء كان شخصًا أو جماعة أو مؤسسة ... إلخ أن يجيب _ أو على الأقل يتوقع منه أو يفترض فيه أن يجيب _ عما يُوجَّه إليه من أسئلة سواء كانت هذه الأسئلة صريحة ومباشرة، أو كانت ضمنية. بمعنى سواء كانت طلبًا ماديًا مباشرًا أو استفسارًا واستعلامًا أو استجوابًا وتحقيقًا، أو كانت عبارة عن موقف على طرف ما، هو الطرف المسئول، أن يتخذ رد فعل أو قرارًا تجاهه، إمّا استنادًا على قدرة معينة وصلاحيات محدَّدة والتزام بعينه جعلته مؤهلاً لأن يكون فى موقع "المسئولية – المساءلة" أو استنادًا إلى تقدير هذا الطرف ذاته للموقف وشعوره بضرورة الاستجابة تجاه هذا الموقف، حتى وإن لم يكن داخلاً فى نطاق صلاحياته أو مخولاً للاستجابة تجاهه بفعل معين أو رد فعل ما. وهو ما يكشف عن أن للمسئولية بعدًا إلزاميًا من جهة وبعدًا آخر اختياريًا من جهة أخرى، إلا أن كلا البعدين يرتبطان باستعارة "المسئولية امتحان" وذلك أن كلا البعدين: الإلزامي والاختياري /أو الطوعي قد تترتب عليهما "المساءلة"، وفى الحقيقة فإن استعارة "المسئولية امتحان" أو "المسئولية مساءلة"، بغض النظر عن الجهة المُمتحِنة أو الجهة السائلة، تقرن المسئولية بالخوف بصورة ما. فالمسئولية كتكليف تعني أن الإنسان أو حتى الشخصية الاعتبارية أيًا كانت عليها أن تجيب إجابات صحيحة عما كُلِّفت به بما يضمن النجاح. وبهذا المعنى فإن المسئولية امتحان، كما أن الفشل فى المسئولية تترتب عليه أسئلة أخرى حول الفشل ذاته، وهو ما يعني أن المسئولية ذاتها امتحان والفشل فى المسئولية أيضًا هو امتحان آخر؛ وهو ما يؤكد ويدعم استعارة "المسئولية امتحان". بمعنى أن الامتحان فى حالة الفشل يصبح مضاعفًا، إلا أنه قد تكون هناك فرصة فى بعض الحالات لإعادة الامتحان، بينما قد لا تكون مثل هذه الفرصة في حالات أخرى.

كما توجد استعارة أخرى وثيقة الصلة بسيناريو الامتحان هذا، المتضَّمن فى استعارة "المسئولية امتحان"، وهي استعارة "المسئولية محاسبة". واللافت للنظر أن كلا السيناريوهين تكاد تكون لهما نفس البنية.

---

[5])انظر على بن محمد الجرجانى **كتاب التعريفات** ص 128، مكتبة لبنان، بيروت، 1985. حيث يحدد السؤال بأنه "طلب الأدنى من الأعلى". وانظر ابن منظور، **لسان العرب** مادة "سأل".

[6])انظر مادة "سأل" فى ابن منظور، **لسان العرب**.

إذ يفترض سيناريو الامتحان فى صورته النمطية المكونات التالية:

عملية تعليمية فيها طرفان:

1)

- معلم
- متعلم
- أستاذ
- تلميذ
- ممتحِن
- ممتحَن

2) اتفاق: أي عقد مبني على القبول من قبل الطرف الثاني أن يكون مقيَّما من قبل الطرف الأول، سواء كان هذا العقد صريحًا أو ضمنيًا.

3) مادة علمية يحدِّدها الطرف الأول (الأستاذ، أو المؤسسة التعليمية) ويكون الطرف الثانى مسئولاً عنها بكلا المعنيين responsible و asked ، أي أن يكون مسئولاً عن أن يُساءَل.

4) امتحان يكون فيه الطرف الثاني (التلميذ) مسئولاً فيه عن المادة asked ومن ثم مسئولاً عن نتيجة أدائه.

5) نتيجة الامتحان تحدِّد إذا ما كان التلميذ سينتقل إلى درجة أو مرحلة أعلى أم لا.

إلا أن المشكل فى سيناريو الامتحان هو أن صيغة العقد والقبول بموقف الامتحان لا تكون دومًا نتاج خيار حر مائة فى المائة، إذ كثيرًا ما تكون هناك ضغوط من جهات متعددة، الأسرة: الأب، أو الأم، أو الأكبر، أو كل هؤلاء، أو الضغط الاجتماعي العام، أو حتى القدر، وهو ما يجعل قبول الممتحن خاضعًا لضغط أو إكراه ما حتى وإن بدا متحليًا بمظهر الموافقة والاختيار الطوعي أو الاقتناع الكامل. وهنا يجدر التنبيه إلى أن دال "الامتحان"، فى العربية، يشترك مع دال "المحنة" فى جذر لغوى واحد هو "مَحَنَ"، وكلاهما يقترن بالخوف.

وكذلك نجد سيناريو "المسئولية محاسبة"، إذ إن المحاسبة تُحيل فى خطاطتها الأولية الملموسة على مفاهيم: الوديعة – العهدة – الأمانة التى تودع من قبل طرف ما لدى طرف آخر، أيًا كانت طبيعة هذين الطرفين: أشخاصًا، جماعات، مؤسسات ...الخ. وينبغى على الطرف الثاني، أى المُودَع إليه، أو المُؤتمَن، أو المعهود إليه أو الوكيل، أو النائب، أو المفوّض ...الخ. أن يحافظ على هذه الوديعة أو الأمانة ... الخ. وأحيانًا أخرى يتجاوز الأمر مفهوم الحفاظ إلى مفهوم التنمية، أى تنمية الوديعة.

سيناريو المحاسبة

إن سيناريو المحاسبة يفترض الآتي:

1)

- مُودِع
- مُودَع إليه
- مُؤتمِن
- مُؤتَمن

2) وديعة أو عهد أو أمانة يضعها الطرف الأول لدى الطرف الثاني وعلى الطرف الثاني أن يحافظ عليها، إلى الوقت الذى يطلبها فيه الطرف الأول، أو تبعًا لصيغة العقد، إذا كان هناك عقد تفصيلي منصوص فيه على هذا. أو أن يحافظ عليها وينميَّها.

3) إذا طلب الطرف الأول "الوديعة" ولم يفِ بها الطرف الثاني وفق الاتفاق الصريح أو الضمني الذى كان بينهما، فإنه يكون قد خان الأمانة، أو رسب فى امتحان الأمانة، أمَّا إذا حافظ عليها وصانها أو نمَّاها، وفق صيغة الاتفاق، فإنه يكون قد نجح فى الامتحان. وبالطبع تتفاوت درجات النجاح وفق مدى ومقدار الحفاظ/أو التنمية، تمامًا مثلما تتفاوت درجات التلميذ فى الامتحان وفق مدى الحفظ أو الاجتهاد والإبداع.

4) ومثلما هو فى سيناريو الامتحان، فإن قبول الأمانة أو الوديعة ليس هو الآخر، دومًا، نتاج اختيار حر أو اقتناع كامل بالقدرة على حفظها أو تنميتها، إذ قد تكون هناك بعض المواقف الإكراهية أو الإحراجية التى قد تدفع للقبول، أو الظهور بمظهر القبول أو حتى الرهان على الذات.

ولعل مما يؤيد تجاوب هذين السيناريوهين مع بعضهما البعض أن الامتحان فى الثقافة العربية الإسلامية كثيرًا ما يقترن بإمكانية المهانة مثلما هو في التعبير الدارج ''يوم الامتحان يُكرَم المرء أو يُهان''، كما يوصف بأنه "يوم الحساب" كما أن المحاسبة توصف أيضًا بأنها امتحان مثل "لقد كنتُ اليوم فى امتحان عسير" والمقصود أن طرفًا ما كان يحاسب طرفًا آخر على أمر ما. ولا شك أن العنصر الرابط بين هاتين الاستعارتين وبين هذين السيناريوهين أى بين الامتحان والمحاسبة هو مفهوم السؤال المشتق منه مفهوم المسئولية. وهو ما يؤكد ويدعم الخوف الدائم من السؤال فى هذه الثقافة.

ولاشك أيضًا أن سيناريوهات الطلب بالمعنى المادي، والسؤال بالمعنى الاستعلامي – الاستفهامي، والاستجواب أو التحقيق لا تنفصل بشكل أو بآخر عن كلا هذين السيناريوهين. ومع ذلك فإن سيناريو التحقيق الاستجواب هو السيناريو الأقرب إلى هذين السيناريوهين: أي سيناريو الامتحان، وسيناريو

المحاسبة. وذلك أن كلاً من السؤالين الأولين أى السؤال بما هو طلب مادي، والسؤال بما هو استعلام واستفهام قد يكون خارج نطاق أي صيغة مُلزِمة من الاتفاق أو العقد، أى خارج نطاق الإلزام بالمعنى القانوني، إلا أنهما بالتأكيد ليسا خارج نطاق العرف أو الدين أو الاثنين معًا: كأن تجد شخصًا محتاجًا فتساعده من تلقاء نفسك، ودونما شاهد عليكما، أو أن يطلب منك شحَّاذ ما مساعدة، أو أن يسألك شخص ما عن الطريق فتجيبه، وربما توصّله بنفسك، أو أن يسألك طفل أو عجوز أو مُعاق ... الخ. ومع ذلك، فإن كل هذه المواقف وسواها، على كل ما بينها من اختلاف، هي امتحان أخلاقي أو ديني قد يُحاسب عليه المرء إذا ما فشل فى أن يجيب عنه الجواب الصحيح، أو على الأقل الجواب الأقرب للصحة، والحساب بالطبع هو دومًا من آخر ما، أيًا كان هذا الآخر، حتى وإن كان الذات التي هي الأخرى آخر ما دامت لم تستطع، فى لحظة السؤال، أن تجيب الجواب الصحيح أو الإنساني أو شبه الصحيح أو شبه الإنسانى، ومع ذلك فإنها قد تندم على فشلها وتحاسب نفسها بنفسها.[7]

إن كلاً من استعارتي "الامتحان" و"المحاسبة" يجمع بينهما، كما سبق أن قلنا، مفهوم السؤال الملازم للمسئولية، سواء على مستوى الجذر اللغوى أو على مستوى الممارسات. ومع ذلك، فإن مفهوم السؤال يقترن فى الثقافة العربية، للأسف، بالخوف، وبثقافة الخوف، الخوف من المحاسبة، خصوصًا إذا كان السائل لا يملك سلطة ما تمنحه امتياز السؤال، كأن يكون طفلاً، أو امرأة، أو فقيرًا، أو تلميذًا ...الخ. أى أن يكون فى وضعية أدنى بالنسبة لآخر هو أعلى. وكأن السؤال ليس سوى حق وامتياز لا يتمتع به إلا الأقوى، أيًا كان معنى القوة أو معيارها. وكأن الأقوى فقط هو من له الحق فى أن يَمتحِن أو يُحاسِب.

إن السؤال المشتق من جذره دال "المسئولية" لا يعني، بهذا المعنى، رغبة ما فى المعرفة والتواصل بقدر ما يعني التحدى والتجاوز والتعدى على الآخر "المسئول: المُستجوَب" لكن ليس على أيِّ آخر، إذ يمكنك أن تسأل من هو مثلك فى القوة، أمَّا سؤال الأعلى أو الأقوى، ناهينا عن محاسبته، فهو غالبًا، ما لم نقل دائمًا، ينطوى على مخاطرة أو ثمن ما. ولعله فى ضوء هاتين الاستعارتين اللتين يجمع بنيهما مفهوم السؤال بكل تداعياته نستطيع أو يمكننا أن نفهم الاستعارة الأكثر شيوعًا وانتشارًا فى الثقافة العربية – الإسلامية، أو لنقل الاستعارة الممتدة للمسئولية على مدار تاريخ هذه الثقافة، أو بالأحرى الاستعارة الأم على امتداد خطاب المسئولية فى هذه الثقافة عبر كل مراحلها. وهي استعارة "المسئولية بوصفها حِملا."

---

[7] حول مفهوم محاسبة النفس فى الثقافة العربية الإسلامية، انظر: ابن المقفع، **الأدب الصغير والأدب الكبير**، ص 22، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1987. أما فيما يتعلق باقتران المسئولية بالمحاسبة فى الثقافة الغربية فيمكن مراجعة :
Mark Bovens, *The Quest for Responsibility: Accountability and Citizenship in Complex Organizations*, London: Cambridge university Press 1998.

أما النصوص التى يمكن أن ننطلق منها لمعاينة هذه الاستعارة فهى كثيرة كثرة لافتة وتمتد من اليوم إلى ما قبل ظهور دال "المسئولية" فى العربية بقرون عديدة. بعبارة أخرى، إنها تمتد مما قبل الإسلام، مرورًا بالإسلام، ووصولاً إلى يومنا هذا. إلا أنه ينبغي القول أيضًا إنها عبر كل مسار رحلتها تلك كانت محكومة باستعارتي "الامتحان" و"المحاسبة"، أى أنها كانت مقترنة بالسؤال. لكن وعلى الرغم من وفرة هذه النصوص وتنوعها، فإننا نريد أن نبدأ من الحكاية "السؤال"، أى من الحكاية التكوينية الكبرى للمسئولية الإنسانية فى الثقافة العربية الإسلامية. وهى حكاية السقوط، إذ إن سيناريو هذه الحكاية، كما يبدو، مازال هو السيناريو المهيمن على خطاب المسئولية فى الثقافة العربية الإسلامية على مستويات عديدة.

حكاية السقوط:

لاشك أن حكاية خلق الإنسان وسقوطه تتباين ما بين النص القرآني والنص التوراتي فى العديد من النقاط، إلا أننا لا نهدف هنا إلى الدخول فى تفاصيل هذا التباين بقدر ما نهدف إلى رصد ارتباطات هذه الحكاية فى النصين بتشكيل مفهوم واستعارات المسئولية. وهنا لعله من الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على الرغم مما يوجد من تباين، فإنه يوجد أيضًا قدر من الالتقاء، فضلاً عن أن حتى الجوانب التى يختلف فيها النص القرآني عن النص التوراتي نجدها مؤوَّلة فى التفاسير القرآنية على اختلافها انطلاقًا من الحكاية التوراتية.[8]

ولعله مما يستلفت الانتباه، وفق ما تحكيه لنا الحكاية التوراتية عن السقوط، هذا الاقتران اللافت بين استجابة حواء لسؤال الحية وتشكل سيناريو المسئولية. إذ يبدو هذا السؤال وكأنه هو المسئول عن استدراج الإنسان، حواء وآدم، إلى السقوط، عبر تلاعب الحية فى صياغتها للسؤال. والحية هنا هي صوت إبليس وقناعه، وهي، وفق ما يصفها النص التوراتي، "أمكر وحوش البرية التى صنعها الرب الإله." لقد استدرجت الحية حواء عبر السؤال، ولكن أى نوع من السؤال؟ هل سؤال الجاهل المستفهم أم العارف المتجاهل والمدعي أنه لا يعرف؟ وبالطبع فإن الحية كانت تعلم تمامًا ماهية ما حرَّم الله على آدم وحواء من شجر الجنة، إلا أنها تدعي الجهل وتصوغ سؤالها على هذا النحو اللعوب والمتلاعب "أحقًا أمركما الله ألا تأكلا من جميع شجر الجنة؟"[9] وهنا تجيبها حواء، بما تعلمه الحية جيدًا، "يمكننا أن نأكل من ثمر

[8] انظر على سبيل المثال تفسير آيات سورة البقرة الخاصة بحكاية الخلق والسقوط، فى القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى)**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ج 1، ص 302-345. ط 5، دار الكتاب العربي بيروت، 2003.

[9]) الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح الثالث، آية 2.

الجنة كلها، ما عدا ثمر الشجرة التي فى وسطها، فقد قال الله لا تأكلا منه ولا تلمساها لكى لا تموتا." وهنا تجيبها الحية: "لن تموتا، بل إن الله يعرف أنه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تنفتح أعينكما فتصيران مثله، قادرين على التمييز بين الخير والشر."[10]

إن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو لماذا لم تسأل الحية حواء مباشرة عن الشجرة التى حرَّمها الله؟

قد تتعدد الإجابات عن هذا السؤال، إلا أن من بين الإجابات الممكنة التى يتيحها لنا النص أن الحية أرادت أن تشكِّك حواء فى الله، وأنه يمكن حتى أن يحرمهما، هي وآدم، من كل شجر الجنة. ولقد نجحت الحية عبر حيلة السؤال المزعوم، أو لنقل السؤال الشرك أو الفخ، فى استمالة واستدراج واصطياد حواء؛ ومن ثم آدم فى أن يُحرما فعلاً من كِل شجر الجنة. إلا أن ثمة سؤالاً آخر يطرح نفسه هنا، وهو: هل كانت حواء عديمة المسئولية بالمرة كما تصورها أدبيات مختلفة[11] في ظل استجاباتها تلك التي يصوِّرها النص التوراتي أم أنها على العكس من ذلك كانت في قمة المسئولية تجاه شريكها آدم؟

ذلك أنه، وفق منطق الحكاية، لا بد من أن يكون سؤال الحية ـ حتى وإن كان مفخَّخا واصطياديًا في صياغته عبر لعبة استبدال الكل بالجزء، كل شجر الجنة بشجرة معرفة الخير والشر ـ قد أثار لدى حواء السؤال حول مسئوليتها عن نفسها وعن شريكها آدم، أي عن مستقبلهما. لماذا لا يصيران عارفين بالخير والشر؟[12]

إن هذا السؤال غير المعلن عنه فى النص التوراتي، أو هذا السؤال الضمني كان هو دافع حواء لسلوكها، وهو أن تبادر وتمتد يدها لتقطف من ثمر شجرة المعرفة "المحظورة" وتتذوقها ثم تطعم منها شريكها. لقد اقترفت حواء "خطيئة السؤال" فى ظل سيناريو الامتحان الذى يبدو وكأنه كان معدًا من قبل، وبدت حواء فى هذا السيناريو هى المسئول الأول عن الخطيئة، وهو ما تؤكده شهادة آدم عليها حين سأله الرب الإله، بعد أن تعرَّى واختبأ من الرب، "من قال لك إنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التى نهيتك عنها؟"[13] فأجابه آدم على الفور "إنها المرأة التى جعلتها رفيقة لى. هي التى أطعمتني من ثمر الشجرة فأكلت."[14] وهنا يبدو آدم متنصلاً تمامًا من المسئولية، وغير مسئول بالمرة عن حواء أو تجاهها، رغم أنها أطعمته

---

[10]) المصدر السابق: آية 3.

[11] انظر على سبيل المثال، ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، ج 4**كتاب النساء**، خصوصًا باب "مساوئ النساء،" ص 113 وما بعد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سبتمبر 2003.

[12] تختلف الشجرة في النص القرآني، حيث إنها لا تحدد بوصفها شجرة المعرفة، معرفة الخير والشر وإنما بوصفها شجرة الخلود، على نحو ما يرد فى الآية الواردة في سورة الأعراف: "فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين"
[الأعراف، 20]. ومع ذلك فإننا نجد بعض المفسرين يحدد هذه الشجرة بوصفها شجرة المحنة.

[13]) الكتاب المقدس، الإصحاح الثالث، آية 11.

[14]) المصدر السابق: آية 12.

مما طعمت منه. ومع ذلك فقد ظل مسئولاً عن أنه استجاب لرغبتها أمام الرب الإله. هكذا تبدو حكاية السقوط، وفى العمق منها، حكاية المسئولية، وحكاية المحاسبة، وحكاية السؤال المقترن بهما. هذا بغض النظر، عن تقييمنا لكل من موقفي آدم وحواء، حواء التى تجشمت عبء الجواب عن سؤال الحية الخبيث عبر اجتراح المسئولية، وآدم الذى لم يرد فحسب أن يجعل المسئولية مسئولية حواء، بل أراد أن يجعل الله ذاته هو المسئول لأنه وضع معه هذه المرأة التى غرَّرت به.

وفى ظل هذه الحكاية، بالطبع، يمكننا أن نرصد دالاً آخر وثيق الصلة بحقل المسئولية، وهو العقاب المقترن بالفشل فى القيام بالمسئولية. وكأن المسئولية مؤطَّرة بدالّين محوريين هما السؤال والعقاب، على نحو ما تكشف لنا هذه الحكاية من صلة ما بين سؤال حواء الضمني وما نالها من عقاب.

إضافة إلى كل هذا، فإن بقية حكاية السقوط تكشف لنا عن اقتران آخر من اقترانات المسئولية، وهى استعارة "المسئولية بوصفها حِملا" التى هي، كما سبق أن قلنا، أكثر الاستعارات شيوعًا وتداولاً حول المسئولية. وذلك أن حَمْل حواء لم يكن سوى عقاب على اقتراف السؤال والمبادرة بالجواب. وهنا نريد أن نشير إلى أن كلمة "الحَمْل" فى العربية تدخل فى نطاق المشترك اللفظي أو التعدد الدلالي لأنها تدل على ناتج العملية الجنسية بين الرجل والمرأة، أى ناتج التلقيح بمعنى أن يحتضن رحم المرأة ويحمل حيوانًا منويًا خصبًا ... إلى آخر عملية الحمل والولادة، كما يعني كل فعل من أفعال الرفع أو الحمل الأخرى سواء كانت مادية أو مجازية مثل حمل المسئولية. وفى ظل هذه الحكاية التوراتية يبدو حمل المرأة، حواء، المقترن بحمل المسئولية بوصفه عقابًا؛ ذلك أن رد فعل الرب الإله على حواء، بعد أن حمَّلها آدم مسئولية الخطيئة كان هو الآتي: "أكثِّر تكثيرًا أوجاع مخاضِك فتنجبين بالآلام أولادًا."[15] وهنا بالطبع تبدو المسئولية المنوطة بحواء، أي مسئولية الحمل، بوصفها عقابًا، كما يبدو عمل آدم، هو الآخر فى الأرض، بوصفه عقابًا. إذ يقول له الرب "لأنك أذعنت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التى نهيتُك عنها، فالأرض ملعونة بسببك وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك. شوكًا وحسكًا تنبت لك وأنت تأكل من عشب الحقل. بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض، فمن تراب أُخِذتَ وإلى ترابٍ تعود."[16]

ولاشك أن المسئولية وفق هذا السيناريو العقابي أصبحت وثيقة الصلة بسيناريوهات المساءلة والاستجواب والتحقيق، وهى سيناريوهات ترتد جميعًا إلى سيناريو السؤال الذى يبدو وكأنه قد جعل المسئولية تتبدى

[15]) نفسه: آية 16.
[16]) نفسه: 17-19.

بوصفها خطرًا محدقًا، وبوصفها فعلاً إكراهيًا وجبريًا، وقدرًا مفروضًا أُلْقِى على الإنسان الذى أصبح مسئولاً نتاج خطيئة السؤال، ومبادرة الجواب المتسرع لحواء، واستجابة آدم اللامتسائلة إزاء مبادرتها.

ومع ذلك، فإن ثمة بعدًا آخر تعكسه الحكاية التوراتية، وهو اقتران المسئولية بالمعرفة، وهو بعد كان يمكن لهذه الحكاية أن تمتد به بعيدًا عن السيناريو العقابي للمسئولية. بمعنى أنه كان من الممكن لخاتمة هذه الحكاية ألا تتحلى بهذه النبرة العقابية الدامغة فيما يتعلق بكل من حَمل المرأة وعمل الرجل، أى المسئولية الإنسانية وعلاقة هذه المسئولية بالمعرفة، بما يجعل المسئولية ثمرة من ثمار شجرة المعرفة وليست عقابًا على المعرفة. إلا أن هذا لم يكن ولم يحدث، وظلت المعرفة ذاتها تمثِّل حِملا وعبئًا وثِقلا على حاملها، الذى يعرف، فى ظل السيناريو العقابي للمسئولية، بقدر ما ظلت الأدوار الخاصة بكل من الرجل والمرأة محكومة بهذا السيناريو العقابي، حتى بعد أن خرجت المرأة الحامل إلى الفضاء العام وأصبحت اِمرأة عاملة. ومع ذلك فإن هناك حالات كثيرة من الرجال والنساء تحاول أن تكسر هذا الإطار الذى أطَّرته الحكاية الإطار للمسئولية، إلا أنه لا مجال هنا الآن للدخول فى الحديث عن مدى هامشيتهم بالنسبة للنموذج السائد فى المجتمعات العربية الإسلامية، حتى اليوم.

استعارة الحمل فى النص القرآني:

أما إذا ما انتقلنا إلى حكاية الخلق والسقوط واستعارة "المسئولية بوصفها حِملاً" فى النص القرآني، فإننا نجد آية بالغة الدلالة يتم التعبير فيها عن "المسئولية" بوصفها "الأمانة"، وبوصفها أيضًا "حِملا"، وهذا فى سورة الأحزاب حيث تقول الآية (72):

"إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينا أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان أنه كان ظلومًا جهولاً." [الأحزاب 72]

وهنا تتعدد وتتباين تفسيرات هذه الآية، لما تثيره من مشكلات. ذلك أن منطوق الآية وسياقها يجعل "تحمل الأمانة" اقتراحًا وعرضًا وتخييرًا من قبل الله على بعض مخلوقاته التى لا تقارن قوة احتمالها بقوة احتمال الإنسان، ومع ذلك فإن هذه الكيانات التى عُرِضَت عليها الأمانة يأبين أن يحملنها ويشفقن على أنفسهن منها؛ مما يعني أن ثقل الأمانة ووزنها مجاوز لطاقة هذه الكيانات التى عُرضت عليها الأمانة، ومع ذلك فإن الإنسان، وهو هنا يعني النوع الإنساني كله، يتطوع من تلقاء ذاته، وبمبادرة منه، ودون أن يُدعى لحمل هذه الأمانة. أما ماهية الأمانة ذاتها فتختلف حولها آراء المفسرين، وإن كان ثمة اتفاق على أنها

تشمل كل الفرائض التى ائتمن الله عليها العباد وأنها تعم كل وظائف الدين. هذا فى حين أننا نجد بعض المفسرين يختلفون حول تفاصيلها.[17] إلا أن الطريف هو ما يذكر عن ابن مسعود من أن الله "لما خلق الأمانة مثَّلها صخرة، ثم وضعها حيث شاء ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها، وقال لهم "إن هذه "الأمانة"، ولها ثواب وعليها عقاب، قالوا: يا رب، لا طاقة لنا بها، وأقبل الإنسان من قبْل أن يُدعى فقال للسموات والأرض والجبال: ما وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نُطِقْها، فحرَّكها بيده وقال والله لو شئت أن أحملها لحملتُها فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئتُ أن ازداد لازددتُ، قالوا دونك! [أى توقف] فحملها حتى بلغ بها حقويه [أى خاصرته]، ثم وضعها وقال: والله لو شئتُ أن ازداد لازددتُ، قالوا: دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها، قالوا: مكانك! إن هذه "الأمانة" ولها ثواب وعليها عقاب، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها، حملتها أنت من غير أن تُدعى لها فهى فى عنقك وفى أعناق ذريتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلومًا جهولاً."[18] فإذا كانت المسئولية مصوَّرة فى الحكاية التكوينية بوصفها عقابًا، فإنها هنا ممثَّلة بوصفها مبادرة إنسانية صرفة، إلا أن هذه المبادرة تقترن بجهل الإنسان وظلمه لنفسه ولنوعه على حد ما يعكسه وصف الله للإنسان فى الآية، أو وصف السموات والأرض والجبال وفق تفسير ابن مسعود للآية، وهو ما لا يجعلنا نجاوز نطاق الدلالات السلبية المقترنة بتحمل المسئولية، سواء كانت إكراهًا وعقابًا كما هي في الحكاية التكوينية، أو مبادرة كما هي فى آية الأحزاب. ومع ذلك فإن ثمة وجهًا آخر فى الآية وفى تفسيراتها يتمثل فى أن أية مبادرة لتحمل المسئولية ينبغي أن تكون قائمة على إدراك عواقب ونتائج فعل الحمل، وألا يحمل الإنسان أكثر مما يستطيع أن يحمل، ولعل أقرب تمثيل معاصر يمكن أن يستدعيه الذهن هنا هو صورة الربَّاع الذي تغريه الرغبة والطموح في تكسير الأرقام القياسية، فيظل يزيد في ثقل ووزن ما يرفع، وكلما نجح في محاولة أغواه الطمع في المزيد إلى أن يسقط بما يحمله. ولعله فى ظل هذا يمكننا أن نفهم آيات من قبيل "لا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به ..." [البقرة، 286].

ومع ذلك، فإن آية الأحزاب تظل مثيرة لمشكل أساس، وهو أن ما لا يعقل، السموات والأرض والجبال، يعرف أكثر ممن يعقل؛ ومن ثم هذا الوصف الدامغ للإنسان بالظلم والجهالة الذي يمكن القول إنه، مع

---

[17] انظر القرطبى، **الجامع لأحكام القرآن**، ط 5، ج 14، ص 216-229، تحقيق عبد الرزاق المهدى، دار الكتاب العربى، بيروت، 2003.

[18] المصدر السابق، ص 229.

الحكاية التكوينية، قد لعب دورًا فعَّالاً فى هذا التشريط القائم بين المسئولية والخوف، وفى هيمنة استعارة الحِمل – العبء على خطاب المسئولية فى الثقافة العربية الإسلامية. وإضافة إلى ذلك، فإن هذه الآية تنطوي على مفارقة لافتة، وهي أن الإنسان بمبادرته لتحمل المسئولية كان لا مسئولاً بامتياز، وهنا يمكننا أن نلمح ملمحًا من ملامح التقارب والالتقاء ما بين الحكاية القرآنية والحكاية التوراتية، وهو أنه مثلما كانت مبادرة حواء وبالاً عليها وعلى آدم، ومن ثم على النوع الإنساني بأسره، نجد هنا أيضًا أن مبادرة الإنسان بحمل الأمانة تقرنه بالظلم والجهالة على النحو الذي تصوره الآية.

يضاف إلى كل ذلك اتساع نطاق مفهوم "المسئولية" فى الثقافة الإسلامية الذى يمتد ليشمل ما هو ديني وما هو أخلاقي فى آنٍ واحد، ما هو مفروض من الخارج وإكراهي، وما هو مفروض من الداخل وطوعي. ولاشك أن الخطاب الإسلامي على مستوى نصيه الأساسيين، القرآن والسنة، يتحلى بحضور لافت فى الحض على المسئولية تجاه الآخر، بكل أطياف هذا الآخر، بداية من المسئولية عن الكلمة المتمثلة فى الحفاظ على العهود والمواثيق، إلى عدم إيذاء الآخر بالكلمة، ومرورًا بالعلاقات الأسرية وعلاقات الجوار، والعهود، والمواثيق، بل والحض على تجاوز مفهوم الواجب والفرض الديني إلى مفاهيم البر والإحسان والعطاء بصورها المختلفة خصوصاً تجاه الأضعف، أياً كان هذا الأضعف، حتى وإن كان مخالفًا فى الدين.[19] إلا أن مشكل مفهوم المسئولية لا يتمثل فى وفرة هذه النصوص بقدر ما يتمثل فى أنماط الممارسة السياسية السائدة للمسئولية، والتأويل والتوظيف السياسي الانتهازي لبعض الآيات والأحاديث، فضلاً عن جندرة المسئولية لصالح سلطة الرجل وهى مسألة تعود إلى ما قبل الإسلام، وما زالت مستمرة حتى اليوم. وهى ممارسات غير قائمة، للأسف، على مفهوم الشراكة فى المسئولية، وإنما قائمة على مفهوم احتكار الأعلى والأقوى، أيًا كان معيار العلو أو القوة، للمسئولية. وهو احتكار تجسِّده وتكشف عنه مجموعة من الكلمات والعبارات والنصوص الدالة فى الثقافة العربية الإسلامية:

أولاً المروءة:

إن دال المروءة الذى يكاد يكون مُجسِّداً لمفهوم الإحساس بالمسئولية فى الثقافة العربية قبل الإسلام، والذى استمر حاملاً لهذه الدلالة، دلالة الإحساس بالمسئولية، مشتق فى حقيقة الأمر من كلمة "المرء"

[19] لا يتسع المجال هنا لإيراد الآيات والأحاديث الدالة على ذلك، لكن يمكن للمهتم بهذا أن يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، وكلاهما موجود على الإنترنت، حول كل من: عهد، ميثاق، أم، والد، جار، إحسان، صدقة، بر، تقوى ... وسواها كثير.

التى تعني الإنسان بألف ولام التعريف؛ ومن ثم فإن المروءة، بهذا المعنى، تعني الإنسانية، أى: تحقيق وتجسيد الفضائل الإنسانية على اختلافها وتنوعها. إلا أن تحقيق وتجسيد الفضائل الإنسانية ليس إلا احتكارًا رجوليًا صرفًا. ذلك أن أول تعريف نواجهه للمروءة فى "لسان العرب" هو أن "المروءة" كما الرجولية، وهو ما يعني أن الإنسانية احتكار رجولي خالص لا حضور فيه للمرأة، هذا على الرغم من أن كلمة "مرأة" فى العربية ليست سوى تأنيث لكلمة "مرء"، مما يفترض مساواة المرأة للرجل فى المروءة أى فى الإنسانية، إلا أن المعجم لا يعرف شيئًا من صفات المروءة يمكن أن يسنده إلى المرأة؛ ومن ثم يقصر "المروءة" على "كمال الرجولية." إلا أنه من الأمانة أيضاً أن نشير هنا إلى تعريف بالغ الأهمية للمروءة يورده صاحب "لسان العرب" على لسان بعض من سئلوا عن ماهية المروءة، وهو محمد بن عمران التيمي، إذ يقول إن "المروءة ألا تفعل فى السر أمرًا وأنت تستحي أن تفعله جهرًا."[20] وهو بلا شك تعريف يقرن المروءة بالشفافية على نحو مدهش، وهو ما يعني اقتران المسئولية بالشفافية لدى البعض. ومع ذلك فإننا سنجد أن المروءة كذلك محدَّدة بوصفها حِملاً، على لسان نفس الشخص، إذ يقول فى رواية أخرى "ما شيء أشدّ علي حِملاً من المروءة، قيل وأى شيء المروءة؟ قال لا تعمل شيئًا فى السر تستحي منه فى العلانية."[21]

لكن ومع ذلك تظل صورة المسئول بوصفه "الراعي" هى الصورة المهيمنة على مفهوم "المسئول". ذلك أننا نجد حديثاً لافتاً فى هذا السياق، وهو حديث يمثل المسئول بوصفه "راعيًا."

ثانيا: المسئول بوصفه راعيًا:

إن الصورة المهيمنة للمسئول هى صورة المسئول بوصفه "راعيًا،" ولهذا أصله فى الحديث النبوي حيث يقول النبي (ص): "كلكم راعٍ ومسئول عن رعيته، فالإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل فى أهله راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راعٍ، وهو مسئول عن رعيته، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول."[22] إن هذا الحديث، فى حقيقة الأمر، وإن بدا أنه يوزع المسئوليات ما بين الرجل والمرأة وما بين السيد والخادم أو السيد والعبد، إلا أنه، أيضًا يرسِّم

[20] ابن منظور، **لسان العرب**، وأنظر أيضا ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1، ص 295، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، أغسطس 2003.

[21] ابن قتيبة، المصدر السابق.

[22] البخارى، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، **صحيح البخارى**، خ 519، ص 1093، ص 1097، دار ابن رجب، ط 1، المنصورة، مصر، 2004.

صورة المسئول بوصفه راعيًا مما يجعل مَن أو ما يدخل فى نطاق مسئوليته أو مسئوليتها فى حيز القطيع المَرْعِى. ومع ذلك، فإنه يمكن الجدل بأن كلمة راعٍ كما تعني راعي الماشية، فإنها أيضًا تعني الرعاية caring التي تتضمن، إلى جانب ما تتضمنه من دلالة الحفاظ والحفظ، دلالات التنمية والزيادة والتكثير؛ ومن ثم فإن نص الحديث ينصرف إلى مفهوم الرعاية وليس إلى مفهوم الرعي. وذلك بلا شك تفسير وارد ومقبول جدًا، خصوصًا فى ظل رواية أخرى للحديث تقرن مسئولية المسئول بأعمال البر كما تقرن مفهوم المسئول نفسه بمفهوم المساءلة والمحاسبة، حيث نجد رواية أخرى تقول "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راعٍ ومسئول عن زوجته وما ملكت يمينه، فاتقوا الله وما ملكت أيمانكم، والمرأة راعية لحق زوجها ومسئولة عن ماله وكلكم مسئول، فأعدوا لتلك المسائل جوابًا. قالوا يا رسول الله وما جوابها؟ قال: أعمال البر."[23]

ومع ذلك، فإن كل هذا لا يُنحِّى دلالة الرَعْي، ناهينا عن أن من أسماء الحاكم فى اللغة العربية الراعي، وأن الرعَّية هى الكلمة التى تطلق على العامة كما تطلق على الماشية.[24] وفضلاً عن كل ذلك فإن كلمة السياسة مرتبطة فى جذرها بسياسة الماشية أى ترويضها ورعايتها، حيث الوالي يسوس رعيته كما يسوس الراعى الدواب.[25]

وثالثًا، وبالإضافة إلى كل ذلك فإن الخليفة، أى المسئول الأول بامتياز، ممثَّل بوصفه ظل الله على الأرض.[26]

ورابعًا، فإننا نجد آية تؤول لصالح هذا المفهوم الذى يجعل من الخليفة (ثم أصبح الحاكم عمومًا) ظل الله على الأرض، وهى آية "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم." [النساء، 59] وهو ما يجعل طاعة أولي الأمر مسألة مقدّسة ومقترنة بطاعة الله ورسوله.

وخامسًا، فإن الدلالة الاشتقاقية للبيعة تدعم كل هذه الدلالات السلبية لممارسة المسئولية بالمعنى السياسي. وذلك أن البيعة التى تعني اختيار الحاكم للأسف تتضمن على مستوى جذرها الاشتقاقي أن الجماهير تبيع أنفسها للحاكم، بما يوجب عليها الطاعة بشكل مطلق،[27]سواء حماها ورعاها هذا الحاكم أو لم يفعل. ولاشك أن كل هذا يعود بنا إلى مفهوم بطريركي للمسئولية، أو لنقل بالأحرى إلى مفهوم رعوي

---

[23] انظر نص هذه الرواية على الإنترنت.

[24] انظر مادة "رعى" فى **لسان العرب**.

[25] انظر مادة "سَوَسَ" فى **لسان العرب**.

[26] انظر الأبشيهى، بهاء الدين محمد بن أحمد، **المستطرف من كل فنّ مستظرف**، ج 1، ص 118، دار الفكر العربى، بيروت، ط 1، 1997. حيث يورد حديثًا يقول "لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله فى الأرض ..." فضلاً عن إيراده لمجموعة من النصوص التى تؤكد نفس الدلالة، أى دلالة الخضوع للسلطان أو الحاكم.

[27] انظر مادة "بَيَعَ" فى **لسان العرب**.

للمسئولية قائم على استلاب الحقوق السياسية والإنسانية فى مقابل توفير الطعام والحماية، ومع ذلك، فإن هذا الشرط الأخير لم يعد موجودًا حتى كما كان موجودًا لدى شيخ القبيلة قبل الإسلام. وذلك أن المسئول المعاصر، وخصوصًا المسئول السياسي والديني، أصبح: "لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون" [الأنبياء، 22]أى أنه تأله.[28] ولا شك أن كل هذا قد تجلى على مستوى علاقة المحكوم بالحاكم وجعلها علاقة مؤسَّسة على الخوف من المساءلة بقدر ما هى مؤسَّسة على الانتقام من انعدام مسئولية الحاكم وكأن المسئولية تسير فى اتجاه واحد من الأعلى إلى الأدنى، وكأن المسئولية كلها مسئولية الحاكم الذى كان عليه أن يكون عادلاً وأن يُشرك المحكوم فى المسئولية، وليست أيضاً مسئولية المحكوم فى أن يجعل الحاكم مسئولاً، وأ ن يبادر من أجل أن يكون مسئولاً. ولعله فى ظل هذا نستطيع أن نفهم السخرية من الحاكم والسخرية من الحكومة كما يجسِّدها المثل الشعبى المصرى الخارج "افعل كذا بالحكومة وماتوريهاش كذا." وهو بالتأكيد مثل مفعم بالعديد من الدلالات التى تجسِّد لا مسئولية المحكومين (الرعية) إزاء حكومات وحكام (راعاة) غير مسئولين، وهو ما يعني هذه الشراكة الفذة والعبقرية في انعدام المسئولية بين الطرفين.

ومع ذلك، فإننا نجد استعارة أخرى للمسئولية على مستوى المسئولية بين العامة، وهى المسئولية بما هي دَيْن واجب السداد. وهى استعارة وثيقة الصلة باستعارة المسئولية بما هى ''حِمل''. ولكن بمعنى آخر ودلالة أخرى. ذلك أنها "حِمل" ينبغى تأديته لصاحبه أى لمن فعل معروفًا مع المرء.[29] هذا فى حين أن التوظيف الشائع لاستعارة "المسئولية بوصفها حِملاً" غالبًا ما يكون مقترنًا بخطاب السلطة التى تمنُّ على رعيتها بأنها تحمل عبء رعايتها ورعيها – وهو ما يتجلى فى الخطاب السياسي للحكام والزعماء العرب بامتياز؛ ولذا يستحق أن تفرد له دراسة خاصة به – إلا أن ما يعنينا فى ختام هذه الورقة هو الكشف عن أن خطاب السلطة المسئولة هذا ظل دومًا يطرح استعارة الحِمل ليفرض على الشعوب أو الرعية أن ترد الدين بما هو ولاء وبيعة ومبايعة، أى بما هو طاعة عمياء. ولعل هذا هو المنطق الحاكم لخطاب المسئولية عبر كافة مجالاته المتنوعة. وهو ما يجعل خطاب المسئولية فى الثقافة العربية الإسلامية، للأسف، خطابًا دائريًا بمعنى ما، أى خطابًا مركزه هو الأعلى بشكل دائم، مهما تعددت دوائره. أى أنه على الرغم من وجود مفهوم آخر للمسئولية على مستوى المتساوين، سواء كانوا عامة، أى رعية، أو كانوا

[28] لا مجال هنا فى ضوء الحيز المتاح للدخول فى تفاصيل هذا، وإن كنا ننوى أن نوفى كل هذا ما يستأهله من شواهد وأدلة فى ضوء الدراسة المستفيضة التى أقوم بها حول هذا الموضوع.

[29] بهذا الصدد، راجع ابن الداية، أحمد بن يوسف، **كتاب المكافأة وحسن العقبى**، مكتبة الخانجى، ط 2، القاهرة، 2001.

حتى من الخاصة، فإن خطاب المسئول الأعلى ظل دومًا قادرًا على إفساده، بوصفه مركز الدائرة الذى لا ينبغى الخروج عنه، وهو ما جعل المسئولية دومًا مشخَّصة فى شخص الأعلى والأقوى ولم يجعلها قائمة على الشراكة والسؤال والجواب المتبادل من كافة الأطراف؛ ومن ثم ظلت المسئولية محصورة فى نطاق سيناريوهات الاستجواب والامتحان والمحاسبة والدَّيْن التى هى دومًا سيناريوهات الأقوى ولم تتحول قط إلى سيناريو الحوار إلا فى دوائر محدودة للغاية ومُحَاصَرَة، إلى أقصى حد، بدوائر السلطات الأعلى والأقوى. وبما أن الخطاب السياسي والديني هما الخطابان الأقوى والأعلى، فإن مجمل خطاب المسئولية خاضع لهما على نحو بشع، أى على نحو يجعل كل مخالف أو مختلف عما ينطق به هذان الخطابان هو شخص غير مسئول بامتياز، فى حين أن معظم هؤلاء هم المسئولون بحق. وتلك محنة المسئولين، بحق فى الثقافة العربية الإسلامية، حيث يتم قلب الأدوار على نحو كرنفالي تعس؛ إذ يصبح على المحمول أن يكون هو الحامل لمن يُفترَض فيه أن يحمله، أى أنه يصبح على الأضعف أن يكون هو الحامل للأقوى، بمعنى أن تكون الرعية هى الحاملة للراعي، ومع ذلك يظل خطاب الراعي قائمًا على استعارة الحِمل. وهي بلا شك مفارقة الأنظمة الاستبدادية فيما يتعلق بالمسئولية.

ولعله من الملائم فى هذا الجزء المتبقي أن نختم ورقتنا هذه بهذين الاقتباسين الكاشفين عن مدى عمق وامتداد استعارة الحمل في خطاب المسئولية داخل الثقافة العربية إلى يومنا هذا:

فها هو الرئيس السادات فى 11 يناير 1971 يفتتح أحد خطاباته بعد موت جمال عبد الناصر بفترة وجيزة مُخاطبًا جماهير أسيوط التى ينتمي إليهاجمال عبد الناصر:

"إن الأمانة يا أهل الصعيد، يا أهل جمال يا بلد الرجال .. اليوم نلتقى على الأمانة التى حمّلنا إياها سبحانه وتعالى" ثم يختتم الخطاب قائلاً "أيها الأخوة: أريد أن اختتم كلمتي لكم بشيء واحد هو أن نكون على مستوى المسئولية التى أرادها الله لنا هذه الأيام وأن نكون على مستوى حمل الأمانة التى أشفقت منها السماوات والأرض والجبال وحملناها معًا."[30]

وإذا ما انتقلنا من السادات إلى خلفه حسني مبارك فإننا نجده يصور المسئولية على النحو التالي:

"عماد أديب: سيادتك فى هذه اللحظة عندما جاءك الدكتور فؤاد محي الدين وأبلغك بأنك مرشَّح لتحمل المسئولية، بصراحة ماذا كان يدور بداخلك وما هي مشاعرك وأفكارك؟

[30] موقع أنو السادات على الإنترنت، خطب السادات، خطاب بتاريخ 1971/1/11، والأهرام المصرية بتاريخ 12 يناير 1971ز

الرئيس مبارك: بداخلي إن المسئولية التى سأتولاها صعبة جدًا وحمل ثقيل جدًا. وهذا كان أمامي ولم أكن أنسى ما حدث وأنا رأيت الهم كله وأنا نائب وأعلم بما يحدث فى البلد، ولكن خوفًا من أن يحدث شىء للبلد تحملت المسئولية."[31]

وهكذا لا تبدو المسئولية حملاً فحسب لدى المسئولين، وإنما تضحية من أجل الشعب. وهو بالطبع خطاب للاستهلاك المحلي والإعلامي بالنسبة لمن يعرف أن الرئيس مبارك يحكم مصر منذ 1981 حتى اليوم، باسم أنه لا يوجد أحد آخر سواه يمكنه أن يتحمل المسئولية. ولنا وقفة مطولة فى دراسة قادمة حول المسئولية فى الخطب السياسية المصرية.

[31] حوار بين الإعلامى عماد أديب والرئيس مبارك على قناة العربية بتاريخ 2005/5/27، وهو موجود على الإنترنت بتاريخ 25؟5؟2005 الحلقة الثالثة تحت اسم عماد أديب. وقد كان هذا الحوار قبل ترشيح مبارك لمدة رئاسة سادسة.